١ – قسم يجب التكفير به .

٢ – وقسم يجب التبديع به .

٣ – وقسم لا يجب انكاره أصلا . فلنفصله . (١)

ثم أنكر الغزالى منطق أرسطو بعد أن أوصى باستخدامه حيث تنبه إلى ما قد ينتجه تطبيقه فى علوم المسلمين من متناقضات .

كما هاجم الغزالى طريق التعليمية ... وهم الباطنية الذين قالوا بفكرة الامام المعصوم القائم بالحق ... وهذا يعنى أنه «لا يصلح كل معلم، بل لابد من معلم معصوم » وظهرت حجتهم فى إظهار الحاجة إلى التعليم والمعلم ... وأنه لابد وأن يكون المعلم معصوما ..

هذه الفكرة قام الامام الغزالى بالرد عليها ، وأثبت أن المعلم المعصوم هو محمد – صلى الله عليه وسلم – فإذا قالوا : «هو ميت» فنقول : «ومعلمكم غائب» . فإذا قالوا : «معلمنا قد علم الدعاة وبثهم فى البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو شكل عليهم مشكل» ، فنقول : «و علمنا قد علم الدعاة وبثهم فى البلاد وأكمل التعليم ، إذ قال الله تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى» (٢) وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا يضر غيبته» (٣)

(١) المنقذ من الضلال – الغزالى / ٦١ .

(٢) سورة المائدة من الآية : ٣ .

(٣) المنقذ من الضلال – الغزالى / ٧٢ – ٧٥ .

يقول الغزالى – رحمه الله تعالى – : فلما كانت هذه هى حقيقة حالهم .... خبرناهم ثم نفضنا اليد عنهم أيضا» (١)

ثم أقبل – بعد ذلك – بهمته على طريق الصوفية ، وعلم أن طريقهم لا يتم إلا بعلم وعمل ، إذ حاصل علمهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله .

فقام بطلب العلم وتحصيله ، فاطلع على كنه مقاصدهم العلمية ، فظهر له أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعليم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات ، فيقول :

«وكم من الفرق بين أن تعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما ، وبين أن تكون صحيحا وشبعان ؟ وبين أن تعرف حد السكر وبين أن تكون سكران ؟ فكذلك الفرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه ، وبين أن تكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا . فعلمت يقينا أنهم (أى الصوفية) أرباب الأحوال ، لا أصحاب الأقوال . وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم بل بالذوق والسلوك » (٢) .

هذه شهادة صريحة من الامام الغزالى على أن التصوف قائم على

(١) المصدر السابق / ٨١ .
(٢) المصدر السابق / ٨٢ ، ٨٣ .

الذوق والسلوك بعد العلم والعمل ، وأنه مختلف تمام الاختلاف عن شتى العلوم والفلسفات ، فهو لا يكتسب بهما ، كما أنه لا يستند إليهما .

إنه وليد العمل والمجاهدة النفسية ، أو السلوك المرسوم فى الطريق الصوفى ، فإذا كان للصوفى فلسفته ، كانت هذه الفلسفة تأييدا لمشاهداته الصوفية ، وتجاربه الروحية ، وليست شيئا مستقلا عنها ... إنه – أى الصوفى – يتجه بإرادته الإنسانية نحو معبوده الأعلى – الله جل جلاله – والاقبال عليه بكنه الهمة ، بعد أن تخلى عن الجاه والمال ، وهرب من الشواغل العلائق .

يقول الغزالى : «ودمت على ذلك – متخليا عن الجاه والمال والشواغل والعلائق – عشر سنين ، وانكشفت لى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذى أذكره لينتفع به :

أننى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطريق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، فى ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به » (١)

(١) المصدر السابق / ٨٧

ثم يقول :

«وبالجملة . فماذا يقول القائلون فى طريقة طهارتها – وهى أول شروطها – تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة – استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله ! وهذا آخرها بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها ، وهى على التحقيق أول الطريقة .

ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات ، حتى أنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ، ويقتبسون منهم فوائد . ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال ، إلى درجات يضيق عنها النطق ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه .

وعلى الجملة ينتهى الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ ... بل الذى لابسته تلك الحالة لا ينبغى أن يزيد على أن يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره ∴ فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر [1]

هذه هى شهادة الامام الغزالى لهذه الطائفة (الصوفية) وبيانه لمنهجهم فى المعرفة وطلبهم لها ، من خلال دراسته لحديث افتراق الأمة .

---

(١) المصدر السابق / ٨٨ .

المنهج الصوفى منهج علمى :

قسم صاحب «أبجد العلوم» البحث فى الإلهيات إلى قسمين :

الأول : إما أن يكون على طريق النظر .

الثانى : إما أن يكون على طريق الذوق .

فالأول : إما على قانون فلاسفة المشائين ، فالمتكفل له كتب الحكمة – أى أننا نعرفه من كتب الفلاسفة – أو على قانون المتكلمين .

والثانى : إما على قانون فلاسفة الاشراقيين فالمتكفل له كتب الاشراق ونحوه . أو على قانون الصوفية واصلاحهم والمتكفل له كتب التصوف .

وهذا فى الواقع تأريخ دقيق لطرق البحث عند المسلمين . فهذه الطرق يقسمها صاحب أبجد العلوم إلى قسمين : طريق الفلاسفة أى المنطق اليونانى ، أو طريق المتكلمين أى المنطق الاسلامى . ويقسم الطريق الأخير إلى قسمين : طريق الاشراق ، وطريق التصوف .[1]

ويفرد طاش كبرى زاده فصلا فى "النسبة بين طريق النظر وطريق التصفية" ويقرر أن هناك طريقتين :

الأول : طريق الاستدلال وهو درجة العلماء الراسخين .

الثانى : طريق المشاهدة وهو درجة الصديقين .

(١) مناهج البحث عند مفكرى الاسلام – د . على سامى النشار / ٣١٩ .

ثم إن كلا من الطريقتين قد ينتهى إلى الآخر ، فيكون صاحبه مجمعا للبحرين ، أى يجمع بين الاستدلال والمشاهدة . أو العلم والعرفان، أو الشهادة والغيب .

فالسالكون إلى الحق إذن مع كثرة الطرق وتعددها نوعان :

أحدهما : ما يبتدئ من طريق العلم إلى العرفان ، ومن طريق الشهادة إلى الغيب .

وثانيهما : ما يتجلى الحق له بالجذبة الإلهية ، فيبتدئ من الغيب ، ثم ينكشف له عالم الشهادة ، أى يبدأ بالذوق وينتهى إلى الحكمة العقلية.

ثم يكرر طاش كبرى زاده أن العلوم منحصرة فى أن للأشياء وجودا فى أربع مراتب : فى الأعيان ، وفى الأذهان ، وفى العبارة ، وفى الكتابة : «أما العلوم المتعلقة فى الأول من حيث حالها فى نفس الأمر هى العلوم الحقيقية التى لا تتبدل باختلاف الأزمان وتجدد الملل والأديان» أى هى العلم الإلهى .. وهذه تسمى علوما حكيمة إن جرى الباحث عن أحوالها فيها على مقتضى عقله . وعلوما شرعية إن بحث فيها على قانون الاسلام أى هى الفلسفة وعلم الكلام . والعلوم المتعلقة بالثانية هى العلوم الآلية المعنوية كالمنطق ونحوه ، والعلوم المتعلقة بالآخرين هى العلوم الآلية اللفظية أو الخطية . وهذه هى العلوم المعتبرة فى ديننا هذا لورود شريعتنا على لسان العرب وعلى كتابهم . ثم إن الثلاثة الأخيرة من هذه

الأنواع لا سبيل إلى تحصيلها إلا الكسب بالنظر . وأما النوع الأول أى العلم الإلهى فقد يتحصل بالنظر ، وقد يتحصل بالتصفية .

هذا التقسيم يعود فى آخر الأمر إلى تقسيم الطرق إلى نظرية ، وصوفية أو ذوقية . ولم يقبل الصوفية الطريق الأول ، وأنكروا كل الطرق التى تقوم على النظر .. كما أن أهل النظر أنكروا طريق الصوفية ، وقالوا : إن طريق التصفية صعب الوصول ، لأن محو العلائق – كما يتطلب التصوف – إلى حد يؤدى إلى انكشاف المعارف متعذر ، بل قريب من الممتنع ، وإن أفضى إلى القصد – أى إلى علم – فثباته أبعد منه . ذلك لأنه تجربة ذاتية لا تقوم على قانون عام مسلم به ، وبهذا يفسرون نتائج التصوف تفسيراً مرضياً بحتا .

ويرد الصوفية على أهل النظر بأن العلوم الحاصلة بالنظر مشوبة بأحكام الوهم ، وغير خالصة من عمل الخيال ، وأن المعتزلة تلجأ فى أحكامها إلى قياس الغائب على الشاهد ، وتنتهى أقيستهم هذه إلى أخطاء شنيعة وضلال ظاهر ، وعلى العكس من هذا طريق التصوف ، إنه تصفية روحية ، والفيض من بين العلوم الحقيقية هو الطريق الوحيد للعلم وبواسطته تنكشف علوم إلهية ومعارف ربانية ، «ويرد عليهم وارد إلهام هو حديث عهد بربه» ، وأما أن طريق التصوف صعب الوصول فلا يقدح فى قوة اليقين وصحة العلم ، أما التفسير المرضى للتصوف باعتباره اختلالا فى المزاج ، فإن المتصوفة قلما يحدث لهم هذا : «لأنهم كما أنهم

أطباء النفوس والأرواح ، كذلك عارفون بأحوال البدن والأشباح ، فالرياضة على ما شرطوه من الأحوال أمان من العناء والاختلال» ، أما ما يحدث لبعض المتصوفة من شذوذ أو اضطراب عقلى ، فإنه نشأ عن شذوذ واضطراب أصلى فى النفوس قبل البدء فى الطريق» (١) .

هذه صورة من صور النزاع بين أهل النظر من المتكلمين ، وأهل الذوق من الصوفية ، وهى تدل على استقلال المنهج الصوفى عن غيره من المناهج العلمية الأخرى . وأنه منهج إسلامى لا غبار عليه . وأنه منهج مجرب ، جربه الامام الغزالى فنجح ، وجربه غيره أيضا فنجح ....

يقول الدكتور عبد الحليم محمود :

«وإذا عجز المنهج العلمى المادى عن دراسة التصوف فى حقيقته وجوهره ، وعجز المنهج العقلى كذلك ، فإن الصوفية جميعا ، وفلاسفة الإشراق منذ فيثاغورث ، وأفلاطون إلى الآن يعلنون منهجا محددا ويقرونه جميعا ، ويثقون فيه ثقة تامة ، ذلك هو المنهج القلبى ، أو المنهج الروحى ، أو منهج البصيرة ، وهو منهج معروف ، أقرته الأديان جميعا ، واصطفته مذاهب الحكمة ؛ القديم منها ، والحديث يقول سبحانه : «إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا» (٢)

إنه سبحانه ذكر الفؤاد على أنه مسئول مثله فى ذلك مثل السمع فى

(١) المصدر السابق / ٣١٩ - ٣٢١ .

(٢) سورة الاسراء من الآية : ٣٦ .

محيطه ، والبصر فى محيطه ، والامام الغزالى معبرا عن رأى الصوفية ، وعن رأى فلاسفة الإشراق ، يرى أن الدليل القاطع على أن هناك معرفة ليس مرجعها إلى الحس ولا إلى العقل ، إنما هو أمران :

«أحدهما عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب ، وإذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضا فى اليقظة : فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسات ، فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر ، لاشتغاله بنفسه .

الثانى : إخبار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن الغيب وأمور فى المستقبل ، وإذا جاز ذلك للنبى – صلى الله عليه وسلم – جاز لغيره ، إذ النبى عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور ، وشغل بإصلاح الخلق ، فلا يستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق ، ولا يشتغل بإصلاح الخلق ، وهذا لا يسمى «نبيا» بل يسمى «وليا» . (١)

فالامام الغزالى يتشبث بالرؤيا كبرهان ودليل على أن هناك آلة للمعرفة غير الحس والعقل ، ويردد ذلك فى كثير من كتبه ... لكنه لم يقف عند هذا الوجه من الاستدلال ، بل يأتى بشواهد الشرع ، وبذكر المواقف والأحداث ، وذلك كقول الله تعالى : «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» (٢) ، وقوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله

(١)غيث المواهب العلمية – النفرى – تحقيق د. عبد الحليم محمود ، د. محمود بن الشريف / ٩ .
(٢) سورة العنكبوت من الآية : ٦٩ .

جعل لكم فرقانا» (١) ، قيل : نورا يفرق به بين الحق والباطل ، ويخرج به من كل الشبهات . وقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – «قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم أناس محدثون فإن يك فى أمتى أحد منهم فهو عمر بن الخطاب» (٢). والمحدث : هو الملهم .. سئل بعض أهل الفهم عن المحدث ، فقال : أعلى درجة من درجات الصديقين ، ودلائل ذلك ظهرت عليه وهو ما ذكر عنه أنه كان يخطب فصاح ، فقال فى وسط خطبته ، يا سارية الجبل ، وسارية فى عسكر على باب نهاوند ، فسمع صوت عمر – رضى الله عنه – وأخذ نحو الجبل وظفر بالعدو .. وقيل لسارية : كيف علمت ذلك فقال : سمعت صوت عمر – رضى الله عنه – يقول : يا سارية الجبلَ الجبل . (٣)

هذا ولم يكن علم الخضر عليه السلام ، علما حسيا ، أو عقليا ، وإنما هو العلم الربانى ، وإليه الاشارة بقوله : «وعلمناه من لدنا علما» (٤).

التجربة الصوفية :

إن المحور الذى يدور حوله بحث الباحثين فى الحياة الصوفية هو

(١) سورة العنكبوت من الآية : ٢٩ .

(٢) رواه الامام أحمد فى مسنده ، والنسائى فى سننه ، والترمذى فى جامعه عن عائشة رضى الله عنها (الجامع الصغير – السيوطى ١ / ٨٥ وصححه) .

(٣) اللمع – الطوسى – تحقيق د. عبد الحليم محمود ، طه عبد الباقى سرور / ١٧٣ .

(٤) سورة الكهف من الآية : ٦٥ .

(التجربة الصوفية) التى أطلق عليها الصوفية أنفسهم اسم (الحال) ووصفوها بأنها المنزلة الروحية التى يتصل فيها العبد بربه ، أو يتصل فيها المتناهى باللامتناهى . كما وصفوها بأنها المنزلة الروحية التى يحصل لهم فيها الاشراق ويفيض عليهم فيها العلم الذوقى ، وليست هذه الحال من أحوال العقل الواعى ، وإلا كانت خاضعة للعقل وقوانينه ، وإنما هى حالة من حالات الوجود الباطن المتحفز للاعلان عن نفسه فى كل ضروب المقامات السبع ... ويعتبر كل مقام بعد المقام الأول نتيجة للمقامات السابقة . والمقامات السبعة عبارة عن :

١ – التوبة .

٢ – الورع .

٣ – الزهد .

٤ – الفقر .

٥ – الصبر .

٦ – التوكل .

٧ – الرضا .

وتتم هذه المقامات بالرياضة الأخلاقية ، والتمرن على سير الصوفى وسلوكه .

ومن المسلم به أنه لا يجوز أن تشتبه المقامات التى هى من مقولة

المعاملات بالحالات الباطنية والأمور الذهنية للسالكين . إذ تظهر فى مقابل كل مقام حال نفسية ، وانفعال باطنى ، وأمر ذهنى فى السالك يسمى بـ (الحال) ، وجمعه (أحوال) .

وقد وصف صاحب كتاب «اللمع» عشرة أحوال وهى عبارة عن :

١ - حال المراقبة .

٢ - حال القرب .

٣ - حال المحبة أى العشق .

٤ - حال الخوف .

٥ - حال الرجاء .

٦ - حال الشوق .

٧ - حال الأنس .

٨ - حال الاطمئنان .

٩ - حال المشاهدة .

١٠ - حال اليقين .

ومقامات التصوف إنما هى من الأمور الإكتسابية والاجتهادية ، ومن جملة الأعمال التى هى باختيار السالك وإرادته ، بينما «الأحوال» من مقولة الإحساسات والانفعالات الروحية ، ومن الحالات والكيفيات النفسية

الخاصة مما ليس باختيار الانسان ، بل هو من جملة المواهب والأفضال النازلة على قلب السالك من لدن الله من غير أن يكون للسالك أدنى تأثير فى نزوله على قلبه أو محوه عن خاطره .

ولكى يتضح الفرق بين المقامات والأحوال نورد كلام الهجويرى بنصه فى الفرق بين المقام والحال فقد قال : «اعلم أن هذين اللفظين مستعملان بين هذه الطائفة وجاريان فى تعابيرهم ، ومتداولان فى العلوم وفى بيان المحققين وليس للطالب بد من معرفتهما ...

اعلم أن «المُقام» بضم الميم هو الاقامة ، وبفتح الميم محل الاقامة وهذا التفصيل فى لفظ المقام سهو وخطأ ، فالمقام بضم الميم فى اللغة العربية إنما هو الاقامة ومحل الاقامة ، والمقام بفتح الميم هو القيام ومحل القيام ، وليس محل إقامة العبد فى طريق الحق ، وتقدير حق المقام ، ومراعاته لذلك المقام حتى يحترمه ويدرك كماله بقدر ما يتيسر للانسان ولا يجوز أن يتجاوز عن مقامه من غير أن يؤدى حقه ، بحيث تكون أول المقامات «التوبة» ثم الإنابة ثم الزهد ثم التوكل » وأمثال ذلك . ولا يجوز أن يدعى الشخص الإنابة (الورع) من غير قيامه بالتوبة ، أو أن يدعى التوكل من غير زهد ، والله تعالى أخبرنا بواسطة جبرائيل بقوله : «وما منا إلا له مقام معلوم» [1] ، ولا يوجد أحد منا إلا وقد تبين له مقام معلوم . كما أن الحال معنى ينزل من جانب الحق على القلب من غير أن

(١) سورة الصافات الآية : ١٦٤ .

يتسنى ذلك عن النفس بالاكتساب إذا تحقق ، كما أن جذبه يستلزم التكلف إذا ما ذهب .(١)

فالمقام إنما هو عبارة عن طريق الطالب وموضع أقدامه فى محل الاجتهاد ، ومرتبته بمقدار اكتسابه من التقرب من حضرة الحق ، والحال عبارة عن فضل الله ولطفه على قلب العبد من غير تعلق بمجاهدته ، واعلم أن كل ما هو من المقام يعتبر من الأعمال ، وكل ما هو من الحال يعد من الأفضال وأن المقام هو من جملة المكاسب ، والحال من جملة المواهب ، فصاحب المقام إنما هو قائم بمجاهدته ، وصاحب الحال إنما هو فان عن نفسه ، وقيامه منوط بحال أو جدها الله فيه .(٢)

والسالك فى الطريقة ما لم يعبر كل المقامات ، ولم يصف نفسه قبل الدخول فى المقام الأعلى ، وما لم يكمل نفسه ويكتسب الأحوال الروحانية التى جعلها الله من نصيبه ، وما لم يذق طعمها ، فلا يكون سيره عندئذ قد تم ، ولا يكون قد بلغ الكمال ، وبعد أن يتم السالك هذه المقامات والأحوال يصل إلى المراحل والآفاق العليا فى التصوف مما يسميه

(١) يقول الشيخ العطار فى تذكرة الأولياء فى أحوال الشيخ أبى الحسن الخرقانى : ورى أن الشيخ قال ذات ليلة أن اللصوص يقطعون الطريق فى البرية الفلانية ، وقد خرج عدة أشخاص فسألوا عن حقيقة الأمر وتبين صدقه ... ومن العجب أنه فى نفس تلك الليلة قطعوا رأس ابن الشيخ ووضعوه على عتبة داره ، ولم يكن الشيخ يعلم ذلك أبدا ، وكانت زوجته التى تخالفه تقول : ما قولك فى رجل يخبر عما يجرى على بعد عدة فراسخ ، ولا يعلم بقطع رأس ابنه ووضعها على العتبة ، قال الشيخ : نعم ، كان الحجاب مرفوعا عندما كنا نرى ذلك البعيد ، وكان الحجاب مسدولا فى الوقت الذى قتلوا فيه الولد .

(٢) تاريخ التصوف فى الاسلام – د. قاسم غنى / ٢٨٨ – ٢٩٦ .

الصوفية بمقام «المعرفة» و«الحقيقة» وهذا المقام هو الذى يسمى فيه الطالب «عارفا» ويشعر بنفسه أن هذا العرفان فى باطنه .

ويعتقد الصوفية أن شرف الانسان وتفوقه على سائر المخلوقات منوط باستعداده لمعرفة الله – تعالى – وموضوع «المعرفة» أو «العرفان» هو من أهم المسائل الصوفية بل هو الهدف الأصلى والغرض الأساسى للتصوف .

والانسان لا يستطيع أن ينال المعرفة الإلهية بواسطة حواسه ، لأن الله ليس شيئاً ماديا يمكن إدراكه بالحواس ، وشرط المعرفة هو القابلية والاستعداد ، كما لا يمكن إدراك الله «بالعقل» أيضا لأن الله وجود غير محدود ، ولا يدخل فى الفهم والتصور ، ولا يستطيع منطق العقل والعقل البشرى أن يتجاوز المحدود ...

ويعتقد الصوفى أن قلب الانسان مرآة يجب أن تتجلى فيها الصفات الإلهية كلها ، فإن لم تكن كذلك فإنها ترجع إلى وجود الصدأ فى المرآة ، وينبغى أن نجد ونجتهد حتى يزول عنها الصدأ والغبار ... ونقاء مرآة القلب منوط بالفضل الإلهى ونتيجة للفيض الربانى الذى يسمى فى إصطلاح الصوفية «التوفيق» ولكن على الانسان أن يبذل الجهد حتى يجعل نفسه مستعدة وقابلة للفيض مصداقا للآية الكريمة :

«والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين» (١)

(١) سورة العنكبوت الآية : ٦٩ .

كما يعتقد الصوفية أن المعرفة الصوفية" تختلف أساسا وأصولا عن "علم" العلماء . إذ هى نور الرحمة الإلهية التى تشرق فى قلب السالك المستعد القابل لذلك ، وتزيل وتمحو كل مشخصاته وقواه فى الأشعة النورانية ... ولهذا قال الجنيد البغدادى : «من عرف الله كل لسانه» .

والذين يطلبون الله – تعالى – على ثلاثة أنواع :

الأول : أهل الزهد والعبادة : وهم الذين يعبدون الله طمعا فى الجنة والثواب الأخروى ، أو أملا فى جزاء روحانى كالكرامات وأن الله يعرف نفسه إليهم بفضله .

والنوع الثانى منهم : حكماء الحكمة الإلهية الذين يعرف الله نفسه إليهم عن طريق جلاله وجبروته ، ولكنهم لا يستطيعون إدراك جلال الله وجبروته عن طريق الاستدلال والمنطق ، وهم حيارى فى معرفة صفات الله وآثاره . وعاجزون كلية عن إدراك الذات الإلهية . وخلاصة أقوالهم هى أن الذات الإلهية لا تدرك ، ونتيجة علمنا هى «أننا نعرف عجزنا عن إدراكه» .

النوع الثالث منهم : العارفون الذين يعرفهم الله نفسه عن طريق الاشراق ، أى أن العارف يصل إلى حالة ينقطع فيها عما سوى الله ، ويبتعد عن حدود التعينات الذاتية ، ويفنى فناء تاما ويبقى فى الله . (١)

(١) تاريخ التصوف فى الاسلام – د. قاسم غنى / ٥٩٧ ، ٥٩٨ .

وهذا يعنى أن المعرفة تفيض على الأولياء بالكشف فقط ، ويتسنى هذا عندما يمحى وجود الطالب نفسه ، ولن يكون ذلك إلا إذا التزم الصوفى بالشريعة ، وجعلها سلما للرقى والصعود ، حينئذ يرتقى ببركة الايمان ... ومعنى ذلك أن الشريعة بذاتها ليست هدفه النهائى وغايته فى السير ، بل إنها وسيلة وواسطة ، وإنما تجعله مستعدا للوصول إلى غرضه ومطلوبه الذى هو المعرفة ليس غير . وقد روى عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن الله – عز وجل – قال : «من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إلى مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت على شئ أنا فاعله ترددى على نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته» (١)

فالصوفى يرى كل الطرق غير كافية للوصول إلى الكمال إلا طريق السلوك والعرفان . وهذا ما تميز به الصوفى عن غيره ، إنه أخذ بظاهر الشرع وسلكه بحيث توصل إلى باطنه ومعناه ، وتحقق به ... ومعنى ذلك – كما قال أغلب كبار الصوفية – أن الشريعة بغير الطريقة عبث ، كما أن الطريقة بغير الشريعة نفاق ، ونسبة هذين الأمرين بعضهما إلى بعض كنسبة الروح إلى البدن ، وقد بذلوا جهودا كثيرة لهذا الغرض وألفوا كتبا

(١) أخرجه البخارى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – ٨ / ١٠٥ (باب التواضع) .

كثيرة فى التفاسير العرفانية للقرآن الكريم ، وتوفيق الشريعة والطريقة ، وأقل نتيجة حصلوا عليها هى أنهم هذبوا قليلا أو كثيرا فى كل زمن زمرا من الناس وأخرجوهم من العصبية والجمود ، وضيق الأفق ، والتعبد الآبائى الأعمى إلى العبودية الحقة ، والتى نهايتها «عبودية الله الواحد الأحد» والخروج عن كل ما عداه ، وهذه هى غاية الانسان وهدفه فى هذه الحياة ... قال تعالى : «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين» (١) ، وقال سبحانه : «الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز ، من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب» (٢).

اهتمام السلفيين بالتصوف :

السلف : لفظ أطلق على الصحابة والتابعين وتابعى التابعين ، وعلى أهل القرون الثلاثة الأولى ، ومن تبعهم من الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة السلف والشيوخ والمحدثين ... وذلك لما روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يأتى من بعدهم قوم يتسمنون ويحبون السمن يعطون الشهادة قبل أن يسئلوها» (٣) . وفى رواية عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله -

(١) سورة الذاريات الآيات : ٥٦ - ٥٨ .

(٢) سورة الشورى الآيتان : ١٩ ، ٢٠ .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه ، والحاكم فى المستدرك عن عمران بن حصين (الجامع الصغير - السيوطى ٢ / ٩ وصححه) .

صلى الله عليه وسلم – قال : «خير الناس القرن الذى أنا فيه ثم القرن الثانى ثم الثالث» (١)، لقد تركنا – صلى الله عليه وسلم – على المحجة البيضاء ، عن العرباض بن سارية – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك ، ومن يعيش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بما عرفتم من سننى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ ، وعليكم بالطاعة وإن عبدا حبشيا ، فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد» (٢) .

والباحث فى التراث السلفى يجد أهمية كبرى للتوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرضا وكلها مقامات أعطت بداية الالتقاء بين السلفية والصوفية ، وأئمة السنة من فقهاء ومحدثين ، ونساك، وعباد ، وكل هؤلاء تجمعهم عبارة السلف الصالح – رضى الله عنهم –.

وهذا ما يدعونا إلى البحث والتنقيب عن الصور التى تسمو بأرواحنا ، وتجعلنا أمة واحدة أخرجت للناس ، ونقف على الحق غير مغالين من خلال هؤلاء السلف الصالح .

«قال بشر بن الحارث سمعت المعافى بن عمران يقول : كان عشرة فيمن مضى من أهل العلم ينظرون فى الحلال النظر الشديد ، لا يدخلون بطونهم إلا ما يعرفون من الحلال وإلا استفوا التراب .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (الجامع الصغير – السيوطى ٢ / ٩) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ، والحاكم فى المستدرك (الجامع الصغير – السيوطى ٢ / ٨٥ وصححه) .

وهم : إبراهيم بن أدهم ، وسليمان الخواص ، وعلى بن الفضيل ، وأبو معاوية الأسود ، ويوسف بن أسباط ، و وهيب بن الورد ، وحذيفة شيخ من أهل حران ، وداود الطائى ، فعد عشرة كانوا لا يدخلون بطونهم إلا ما يعرفون من الحلال وإلا استفوا التراب .

يقول الامام أحمد بن حنبل : «سمعت بشرا يقول : ينبغى للرجل أن ينظر خبزه من أين هو ، ومسكنه الذى سكنه أصله من أيش هو ثم يتكلم» (١)

هذا ولقد كان بشر بن الحارث الصوفى الزاهد الورع يلفت نظر الداعية إلى الاسلام أن يكون قدوة صالحة فى حياته فى مطعمه ، ومشربه ، وملبسه ، ومسكنه قبل أن يتكلم فى الاسلام ويدعو إليه ، ولله در القائل :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

ولقد تجاوب أحمد بن حنبل مع الصوفية ... فى أخلاقهم وعاداتهم التى كان كثيرا ما يشاهدها ، فمن ذلك : أنه سئل عن قبلة اليد ، فلم ير به بأسا على طريق التدين ، وكرهها على طريق الدنيا . فقد قبل أبو عبيدة يد عمر بن الخطاب . وعن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن ابن عمر أنه قبل يد النبى - صلى الله عليه وسلم - وعن على بن ثابت قال :

(١) كتاب الورع - الامام أحمد بن حنبل / ٧ .

سمعت سفيان الثورى يقول : لا بأس بها (أى قبلة اليد) للأمام العادل ، وأكرهها على الدنيا .

ويذكر ابن حنبل : التقوى ، والورع فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فيروى عن سفيان أنه قال : لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا من كان فيه ثلاث خصال :

«رفيق بما يأمر ، رفيق بما ينهى ، عدل بما يأمر ، عدل بما ينهى ، عالم بما يأمر ، عالم بما ينهى» (١)

ويضع ابن تيمية الزهاد ومشايخ الصوفية بعد التابعين فى مقدمة أولياء الله تعالى والذين اشتهروا بالاتجاه الروحى والأخلاقى أمثال سعيد ابن المسيب ، والحسن البصرى ، وعمر بن عبد العزيز ، ومالك بن أنس ، والأوزاعى ، وإبراهيم بن أدهم ، وسفيان الثورى ، والفضل بن عياض ، ومعروف الكرخى ، والشافعى ، والدرانى ، وبشر الحافى ، وعبد الله بن المبارك ، وغيرهم كثير .

وكان ابن تيمية يدعو إلى الاقتداء بهم ، لأنهم سلكوا السبيل الصحيح ، فهم فقهاء ، ومحدثون ، ومدافعون عن العقيدة السلفية ، إلى جانب ذلك كونهم زهادا عمقوا الحياة الروحية عند المسلمين بنظرياتهم التى انبثقت من الكتاب والسنة وهم شيوخ السلف فى العصور الأولى. (٢)

(١) المصدر السابق / ٨ .

(٢) الزهاد الأوائل – د. مصطفى حلمى / ٢٠ – ٢٤ .

وأبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى فى كتابه : «تلبيس إبليس» والذى اشتهر به أنه عدو للصوفية ، قال فيه : «وقد كان السلف يحبون جمع كل فضيلة ، ويبكون على فوات واحدة منها ، قال إبراهيم بن أدهم : دخلنا على عابد مريض وهو ينظر إلى رجليه ويبكى فقلنا : مالك تبكى ؟ فقال : ما اغبرتا فى سبيل الله تعالى ، وبكى مرة أخرى فقيل له . ما يبكيك ؟ قال : على يوم مضى ما صمته ، وعلى ليلة ذهبت ما قمتها ... وقعد قوم عند معروف الكرخى ، فقال : أما تريدون أن تقوموا فإن ملك الشمس يجريها ... » (١)

بذلك وضع ابن الجوزى مشايخ الصوفية وجعلهم من أئمة السلف الصالح ، واستشهد بأقوالهم فى اغتنام الوقت ، والتفانى فى طاعة الله – عز وجل – فها هو يقول عن حالهم : «بعضهم كان يختم القرآن فى كل ليلة ، وكان أربعون رجلا من السلف يصلون الفجر بوضوء العشاء ، وكان رابعة (العدوية) لا تنام الليل ، فإذا طلع الفجر هجعت هجعة خفيفة وقامت فزعة ، وقالت لنفسها : «النوم فى القبور طويل» (٢) إلى غير ذلك مما ذكره ابن الجوزى عن هؤلاء الصفوة من الصوفية .

ويذكر أبو زكريا يحى بن شرف الدين النووى الشافعى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ فى كتابه «التبيان فى آداب حملة القرآن» كثيرا من اقتباسات الصوفية ، فهو يروى فى هذا الكتاب عن القشيرى ، والحارث المحاسبى ،

(١) تلبيس إبليس – ابن الجوزى / ٢٧ .
(٢) لقطة الكبد إلى نصيحة الولد – ابن الجوزى – تحقيق – د. فؤاد عبد المنعم / ٢٦ – ٢٩ .

وذى النون المصرى ، وسهل التسترى ، والفضيل بن عياض ، وأبى عبد الرحمن السلمى ... وغيرهم ، بجانب ما يرويه عن إمام الحرمين ، وأبى سليمان الخطابى ، وإبراهيم النخعى ، كما روى عن الامام مالك ، والشافعى ، وابن حنبل ، وأبى حنيفة ، وغيرهم من أئمة السلف الصالح – رضوان الله عليهم – (١) .

وفى رسالة «الصوفية والفقراء» لابن تيمية قسم الصوفية إلى ثلاثة أقسام : صوفية الحقائق ، وصوفية الأرزاق ، وصوفية الرسم .

ويقول عن صوفية الحقائق : «الصوفى .. هو فى الحقيقة نوع من الصديقين ، فهو الصديق الذى اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذى اجتهد فيه ، فكان الصديق من أهل هذه الطريق ... كما يقال : صديقو العلماء ، وصديقو الأمراء ، فهو أخص من الصديق المطلق ، وبون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، فإذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين أنهم صديقون ، فهو كما يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة أنهم صديقون أيضا . كل بحسب الطريق الذى سلكه من طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده ... فهم (أى الصوفية) من أكمل صديقى زمانهم ، وأن الصديق فى العصر الأول أكمل منهم .

ثم يبين ابن تيمية – بعد ذلك – صوفية الأرزاق وهم الذين وقفت عليهم الوقوف كالخوانق ... وصوفية الرسم وهم المقتصرون على النسبة ،

(١) التبيان فى آداب حملة القرآن – النووى / ١٥ – ١٧ .

فهمهم فى اللباس والآداب الوضيعة ونحو ذلك .

كما يذكر لنا ابن تيمية رأى الناس فى الصوفية فيقول : «تنازع الناس فى طريقهم فطائفة ذمت الصوفية والتصوف ، وقالوا إنهم مبتدعون خارجون عن السنة ونقل عن طائفة من الأئمة فى ذلك من الكلام ما هو معروف ، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام .

وطائفة غلت فيهم ، وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء ، وكلا طرفى قصد الأمور ذميم»

«والصواب أنهم مجتهدون فى طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذى هو من أهل اليمين ... وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب» (١)

لقد رأى ابن تيمية أن منهم السابقين وأهل اليمين .

لكن ذلك لم يعجب الدكتور / محمد جميل غازى الذى نشر هذه الرسالة لابن تيمية ، فقول فى المقدمة :

«ما هذا الكلام الذى ينقله شيخ الاسلام عن الصوفية ... من أنهم صديقو الأمة ؟ أية صديقية هذه ؟ وأية أمة تلك ؟ ... فإن الصوفية هى الوباء القتال والداء العضال الذى منيت به هذه الأمة ، فرقت الجماعة وروجت البدعة وحاربت التوحيد وهاجمت السنة وأشاعة الفوضى والجهل

(١) الصوفية والفقراء – ابن تيمية / ٢٣ ، ٢٤ .

باسم العبادة والذكر والعهد والطريق»(١)

ونقول : إن مثل هذه الآراء والأقوال هى التى أشعلت النار بين السلفية والصوفية ، ولو تعمقنا فى كلام ابن تيمية بدون تعصب لوجدنا فيه الانصاف والرأى الوسط المقبول ، الذى يؤدى إلى الوحدة ، ولا يهدف إلى التمزق والفرقة بين المسلمين فقد قال ابن تيمية :

«أولياء الله هم المؤمنون المتقون ، سواء سمى أحدهم فقيرا أو صوفيا أو فقيها أو عالما أو تاجرا أو جنديا أو صانعا أو أميرا أو حاكما أو غير ذلك» (٢)

فقال الله تعالى : «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون» (٣)

ولا غرو ففى هذه العبارات لابن تيمية عن الصوفية ، وبيانه لهم ، ما يغير الفكرة التى أرساها أتباعه عنه – من عداء للصوفية – كما أنها تبين الروح الطيبة التى نجدها عند ابن تيمية ، وأن ندعو – كما دعا هو – إلى التوفيق بين السلفية ومشايخ الصوفية ، ونعمل بكل وسعنا لإزالة شقة الخلاف بين الطرفين ، فكل طائفة لا تخلو من عيوب تكون عقبة فى طريق الدعوة إلى الله تعالى ... كالتعصب ، والتقليد ، والجمود والتشدد ، والتطرف ، والغلو فى المشايخ ... كل ذلك لا يفيد فى الدعوة إلى الله

(١) المصدر السابق ٦/ ٧٠ .
(٢) المصدر السابق / ٢٨ .
(٣) سورة يونس الآيتان : ٦٢ ، ٦٣ .

تعالى ، وعلى الداعين من الطرفين مراعاة المدعوين لنكون خير أمة أخرجت للناس ، إذ ليس كل ما علم يُقال ، ولا كل ما تُذُوق يُعرَّف . والمعرفة مقيدة بصاحبها ، فهى عليه شاهدة ، ولغيره مطلوبة فى أوانها ، ولله در القائل:

إنى لأكتم من العلم جواهـــره كى لا يطلع عليه ذو جهل فيفتننا

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المـراجـــــع

القرآن الكريم

١ – إحياء علوم الدين : للامام أبى حامد الغزالى – مطبعة مصطفى البابى الحلبى – القاهرة ١٣٥٨ هـ – ١٩٣٩ م .

٢ – تاريخ التصوف فى الإسلام ، د . قاسم غنى ، ترجمة : صادق نشأت ، مراجعة د . محمد مصطفى حلمى ، طبع دار الطباعة الحديثة – القاهرة ١٩٧٢ .

٣ – تاريخ المذاهب الاسلامية : الشيخ محمد أبو زهرة ، طبع دار الفكر العربى – القاهرة .

٤ – تلبيس إبليس : للإمام جمال الدين بن الجوزى – طبع دار عمر بن الخطاب – القاهرة .

٥ – التبيان فى آداب حملة القرآن : للامام النووى .

٦ – الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير : للإمام جلال الدين السيوطى – طبع دار الكتب العلمية – بيروت .

٧ – الرسالة القسيرية : عبد الكريم القشيرى ، تحقيق : د. عبد الحليم محمود ، د. محمود بن الشريف ، مطبعة حسان – القاهرة ١٩٧٢ .

٨ – الزهاد الأوائل : د. مصطفى حلمى ، طبع دار الدعوة – الاسكندرية – ١٤٠٠ هـ – ١٩٧٩ م .

٩ – صحيح البخارى : للامام محمد بن اسماعيل البخارى ، طبع عيسى البابى الحلبى – القاهرة .

١٠ – صحيح مسلم : للإمام مسلم القشيرى ، طبع دار التحرير – القاهرة ١٢٣٩ هـ .

١١ – الصوفية والفقراء : للامام ابن تيمية ، تحقيق : د. محمد جميل غازى – مطبعة المدنى – القاهرة ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٨ م .

١٢ – غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية – لابن عباد النفرى – تحقيق : د. عبد الحليم محمود ، د . محمود بن الشريف – مطبعة السعادة ١٨٣٠ هـ – ١٩٧٠ م .
١٣ – كشاف اصطلاحات الفنون : محمد على التهانوى – ترجمة د . عبد النعيم حسنين ، تحقيق د . لطفى عبد البديع – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٧٧ م .
١٤ – لفتة الكبد إلى نصيحة الولد : لابن الجوزى ، تحقيق د . فؤاد عبد المنعم – الاسكندرية ١٩٧٩ م .
١٥ – اللمع : لأبى نصر الطوسى ، تحقيق د. عبد الحليم محمود ، طه عبد الباقى سرور – مطبعة السعادة – القاهرة .
١٦ – معجم العلوم الاجتماعية : تصدير ومراجعة د . ابراهيم مدكور – طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٧٥ م .
١٧ – مناهج البحث عند مفكرى الاسلام : د . على سامى النشار – طبع دار المعارف – القاهرة ١٩٦٦ م .
١٨ – المعجم الفلسفى : مراد وهبة – طبع دار قباء – القاهرة ١٩٩٨ م .
١٩ – المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية – طبع مطابع شركة الاعلانات المصرية – القاهرة ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م .
٢٠ – المنقذ من الضلال : لأبى حامد الغزالى – طبع دار صنين – بيروت ١٩٨٠م.
٢١ – الموسوعة الذهبية للعلوم الاسلامية : د. فاطمة محجوب – طبع دار الغد العربى – القاهرة .
٢٢ – الورع : للامام أحمد بن حنبل ، منشورات المكتب السلفى – القاهرة ١٤٠١ هـ .